شهود العيان

على فتح الصليبيين انطاكية

بقلم انور حاتم (دمشق)
دكتور في الادب من جامعة باريس

ملخص تاريخي

كان فتح انطاكية اول والمع موقعة فاز بها الصليبيون في اراضي الشام. غادروا ديارهم افرنسيين ، والمانيين ، وبلجيكيين ، وايطاليين ، بعد ان رنّ في كليرمون صوت البابا الافرنسي أربان الثاني الذي اعلن الحروب الصليبية بتأثير رهبان (Cluny) [1] حيث نشأ وتعلم. خرجوا من ديارهم ، والصعوبات تعرقل كل خطوة يخطونها في سيرهم نحو القدس ؛ وكان قد سبقهم الراهب بطرس الناسك برفقة شخص المساني يدعى گوتييه Gauthier Sans Avoir يصحبهما جماعات من المان وايطاليين وافرنسيين، وكلهم فقراء صعاليك . وصل بطرس الناسك ورفاقه الى القسطنطينية في ٣٠ تموز عام ١٠٩٦ . وكان سفره بالرغم من ارادة البابا اربان الثاني . فهو اذاً المسؤول ، مع القائدين الالمانيين كوتشلك والكونت ايمكو ، عن كل ما حدث اثنا. تلك الرحلة التاعسة التي انتهت في مرفإ على خليج نيكوميديا يدعى كيفوتوس

---

١) لا نستطيع هنا ، لضيق المجال ، ان نبحث عن اصل الحروب الصليبية وكيفية تولدها . وقد كانت غايات البابا أربان الثاني من اعلانها عديدة : منها الدفاع عن مسيحيي الاندلس وايطالية الذين كانوا معرضين دوماً للغزوات المريعة بشكل المسلمين من تلك الغزوات ، ومنها توحيد الكلمة بين امراء اوربة المسيحية الذين كانوا يتقاتلون ، ومنها اعادة قبر السيد المسيح من ايدي المسلمين وتأمين حياة من يقصدونه من الشرقيين والغربيين. راجع اقدم واكمل سيرة للبابا أربان الثاني في مجموعة مين : Dom Ruinart : *Vita Urbani II*, (Migne, *Patrologia latina*, t. CLI, col. 160 sqq.)

Civetot يوم ٢٠ ايلول من السنة نفسها ، حيث انكسرت تلك الزمر الثائرة، وتشتت شملها ، بعد ان ذُبح اكثر جنودها .

وفي نصف شهر آب من السنة ١٠٩٦ ، بدأت الجيوش المنظمة تزحف الى الشرق تحت قيادة ادهيار دي مونتي ، ممثل البابا الاعلى ومطران مدينة البوي، Adhémar de Monteil, évêque du Puy فكان الصلة الكبرى بين القوّاد على اختلاف اوطانهم ونزعاتهم . وقد انقسم الصليبيون الى اربع فرق:

فالفرقة الاولى كان يقودها گودفروا دي بويون دوق لورين الجنوبية Godefroy de Bouillon ، واخوه بلدوين Baudouin وهي مؤلفة من الالمان وافرنسيي الشمال والشرق . اتجهت هذه الفرقة نحو وادي نهر الدانوب ، وبعد ان اجتازت هنغاريا ، اتصلت بالقسطنطينية .

وألفت الفرقة الثانية من جنود هوك شقيق ملك فرنسة ، وجنود روبير كونت الفلاندر ، وروبير دوق نورمنديا ، واتيان كونت بلوا وشارتر . عبروا جميعهم جبال الالب واجتازوا من مرافئ ايطالية الجنوبية الى البانية ومنها الى القسطنطينية .

والفرقة الثالثة كانت تضمّ رجال فرنسة الجنوبية ، وقائدهم اغنى رؤساء الصليبيين واكبرهم سنّاً، وهو ريمون دي سان جيل Raymond de Saint Gilles المعروف عند العرب بصنجيل[1] وهو كونت مدينة تولوز ، واحد اعداء عرب الاندلس . كان يفهم اللغة العربية ، ومطلعاً على اخلاق العرب وعوائدهم . سار برفقة المطران ادهيار واتصل بالقسطنطينية بعد مواقع عديدة في بلاد اوربة الشرقية . وقد اخذ الكونت دي سان جيل على نفسه ان لا يعود ما بقي حياً الى فرنسة .

اما الفرقة الرابعة فكانت مؤلفة من نورمان صقلية يقودهم بوهيمون

---

١) كانت شهرة ريمون دي سان جيل واسعة عند العرب . وعلى اثر احتلال القدس مدحه بعض شعراء الاسلام بقصائد منها قصيدة مطلعها :

نصرتَ بسيفك دين المسيح فلله درك من صنجيل!

وقد قُتل الشاعر ناظم تلك القصيدة .

Bohémond ، المعروف عند المسلمين بيمند ، وابن اخته تنكريد.

وفي شهر ايار من عام ١٠٩٧ اجتمعت كل الفرق في نواحي القسطنطينية . وكان على رأس البلاد البيزنطيـة امبراطور (بازيلوس) محتـال حاول بعض المؤرخين عبثاً تبرير اعماله. فكان ، بالاشتراك مع بطرس الناسك ، العامل الاكبر على الخلاف الذي وقع بين الروم واللاتين . وكانت نية هذا البازيلوس المدعو الكسيس كومنين ان يستعمل العاطفة الدينية التي انقاد اليها اللاتين ، في سبيل استرداد البلاد التي اغتصبهـا الاتراك من الروم . فما كان منـه الا ان منع جيوش الصليبيين عن اجتياز البوسفور قبل ان يقسموا له يمين الطاعة ، بعد ان قطع عنهم الزاد واحاطهم بجنوده وجواسيسه ، فاذعنوا لارادته ما عدا الكونت دي سان جيل وتنكريد.

وقد برهن الامبراطور الكسيس كومنين على خيانته باول فرصة سنحت له . وذلك عند احتلال مدينة نيقية ، بعـد حصار دام اكثر من خمسين يوماً (من ٦ ايار الى ٢٦ حزيران) . وكان الامبراطور اثناء هذا الحصار قد تمكن بواسطة جواسيسه ، من الاتفاق مع سكان المدينة ، فسلموه القلعة . حينئذ منع البيزنطيون جنود اللاتين من الدخول الى نيقية التي حينما وقعت تحت حكم الروم كان يحكمهـا امير تركي توفي في عام ١١٠٧ يدعى قليج ارسلان ابن سليمان .

ترك الصليبيون نيقية ، واعلام البازيلوس ترفّ فوقها ، وتوغلوا في طرق آسية الصغرى ، وفتحوا مـدناً عديدة اهمهـا طرسوس ، وادنة ، ومرعش ، ومامبسترا ، واورفا (او الرها) . وقد احتل اورفا بلدوين ، وتزوج بابنة احد كبار الارمن المدعو تفنوذ ، وأسس اول مملكة لاتينيـة في الشرق . اخيراً وصل الصليبيون امام انطاكية في العشرين من شهر تشرين الاول عام ١٠٩٧

انطاكية ! وصلوها بعد الكدّ والعناء ، وبعد ان تركوا اكثر من نصف مليون جندي امواتاً على طرق اوربة الشرقية وآسية الصغرى . بلغوا انطاكية بعد ان تلعوا اياماً عديدة في جبال طوروس ، تلك الجبال الجهنمية ، كما دعاها احد المؤرخين ، حيث قاسوا الاهوال من جوع وعطش وتعب . وقد فشت فيهم

الامراض وفتك بهم مناخ تلك النواحي الردي. ، وهلكت خيولهم ، فاضحوا يقطعون الجبال والاودية والصخور حفـاة لا يستطيعون النهوض اذا سقطوا . انطاكية ! كم تمثلت لهم تلك المدينة في احلامهم ، وهي المدينة « الملوكية » ، مهد الفن في عهد اليونان والذ مقام شرقي لسلاطين الرومان ، مدينة مار بطرس وعاصمة النصرانية قبل رومة !

احتل الصليبيون انطاكية بعد مواقع عديدة دامية ما عرف تاريخ القرون الوسطى لها نظيرًا . فكان لانتصارهم صدى عظيم في الشرق والغرب . وقد ايقن الجند من تاريخ هذه المواقع بان اصل تلك الحروب الهـام الهي ، وان القائد الاكبر للجيوش هو خالق البشر نفسه . فتكاثرت الرؤى والعجـائب ، وجادت قريحة الشعراء فتغنوا بفوز الصليبيين باللاتينية ، وبلغة فرنسة الشمالية *langue d'Oil* ، وبلغة الجنوب *langue d'Oc* وانتشرت اناشيدهم في الغرب ، وقد ألفت بعد الانتصارات بقليل من الزمن . وتبع الشعراء المؤرخون فاطنبوا بذكر المواقع ، ومدح القواد . فغرقت الحقيقة تحت امواج الاشاعات ، وغدا من الصعب كثيرًا على المؤرخ النزيه التفريق بين الحقائق والاوهام ، ولم يبقَ عليه الا فحص آثار من شاهد عيانًا احتلال انطاكية .

مؤرخو العرب

ليس بين مؤرخي العرب من شاهد عيانًا احتـلال انطاكية ، وقـد فاجأ الافرنج مسلمي الشرق ، وهم لاهون بمحـاربة بعضهم بعضـاً ، ودأب كل من الامارات السورية مقاومة جارتهـا . ولم يكن امراء الاسلام ليتوقعوا زحف الصليبيين الى بلادهم . وهذه علامات الدهشة بينة ظاهرة في التواريخ الاسلامية التي كتبت عن الزحفة الصليبية الاولى ، حتى ما كتب منهـا بعد تلـك الزحفة بقرن او بقرنين . والتواريخ العربية القديمة التي تتكلم عن هذه الزحفة قليـلة الفائدة اتت بعـد الحوادث بزمن طويل . على انه يُستثنى من المؤرخين ابن الاثير وكمال الدين :

ولـد ابو الحسن علي بن محمد عزّ الـدين بن الاثير في اليوم الرابع من

جمادى الاولى عام ٥٥٥ هـ (١٢ ايار ١١٦٠) في جزيرة بني عمر على الضفة اليسرى من نهر الدجلة . وتوفي في الموصل عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢). وقد ترك بين مؤلفاته العديدة كتابين لها اهمية كبيرة في ما يتعلق بالحروب الصليبية وهما « الكامل في التاريخ »[١] ، و« تاريخ الدولة الاتابكية »[٢]. وابن الاثير مؤرخ بعيد عن التصنعات الانشائية دأبه اظهار الحقيقة (او ما يعتقده حقيقة) . ففي تاريخه تتبيّن لنا الانقسامات القاتلة التي حصلت بين المسلمين ، وحالة البلاد الشامية عند وصول الصليبيين ، وما حلّ بامراء الشرق تحت حكم الافرنج . وفي «الكامل» بعض اخبار مهمّة عن فتح انطاكية ، وفوز الافرنج على كربوقا ، صاحب الموصل ، لا نجدها في سواه.

اما كمال الدين ، ابو حفص عمر بن ابي جرادة العقيلي المعروف بابن العديم ، فهو حلبي الاصل . وله كتابان مشهوران في تاريخ وطنه حلب ، الاول منهما معجم كبير عن مشاهير الشهباء عنوانه « بغية الطلب في تاريخ حلب »[٣] . والثاني معروف بين المستشرقين تحت عنوان « زبدة الحلب من تاريخ حلب »[٤] ، وهو مرتب على السنين الى السنة ٦٤١ هـ . توفي كمال الدين في السنة ٦٦٠ هـ اي ١٢٦١ مسيحية . وفي تاريخيه حوادث كثيرة كان يستحيل على مؤرخي

---

١) طالعنا هذا الكتاب في الطبعة الكاملة التي نشرها المستشرق تورنبرغ في مدينة ليدن ، وهي تحتوي على اربعة عشر مجلداً.

٢) نُشر تاريخ الدولة الاتابكية في مجموعة مؤرخي الصليبيين ، في القسم الثاني من المجلد الثاني ، ص ١—٧٧٥

٣) في المكتبة الوطنية في باريس (غرفة المخطوطات) مخطوط يحتوي على قسم من « بغية الطلب » . يبدأ باسم : اسحاق بن منصور ، وينتهي باسم : امين بن عبدالله الاموي . وهو موضوع تحت رقم ٢١٣٨ . وقد نشرت قطع من هذا المخطوط في مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين ، في المجلد الثالث .

٤) يوجد نسخة من « زبدة الحلب » في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ١٦٦٦ . وقد عرف هذا الكتاب ، او استعمله ، او ترجمه ، عدد كبير من المستشرقين اولهم الراهب الدومينيكي دوم برترو الذي كان يجمع مواد لتاريخ الصليبيين في القرن الثامن عشر ، ثم تبعه سيلفستر دي ساسي ، وفيلكن ، ورينو ، وفريتغ ، ودفرمري ، ومولّر ، وبلوشه ، وغيرهم . ونشر قسم من هذا التاريخ في مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين : المجلد الثالث .

الافرنج الاطلاع عليها ، وهو واقف على كل ما جرى في شمالي سورية في عهد المملكة اللاتينية القدسية .

غير العرب من المؤرخين الشرقيين

وقد تكلم عن الحروب الصليبية ، وعن احتلال انطاكية خاصة ، فضلاً عن مؤرخي العرب ، مؤرخون سريانيون وارمن وبيزنطيون . واشهر من كتب عن ذلك العهد من البيزنطيين الاميرة انّا كومنينا (١٠٨٣ - ١١٤٨) ابنة الامبراطور الكسيس الذي سبق ذكره . وقد رأت بعينها جيوش الافرنج تحيط باسوار القسطنطينيّة . وكتبت كتابها الذي دعته «الكسياد»[1] لا للدفاع عن والدها فحسب ، بل لتعظيمه وتمجيده وتخليد اعماله التي جعلته بنظرها بطلاً يضاهي ابطال هوميروس . فلهذا السبب لا يحق لنا ان نستند الى اقوالها ، وهي خالية من تلك النزاهة التي يجب ان يتحلّى بها المؤرخ قبل كل شيء ، عدا انها كانت صغيرة السن عندما اجتاز الصليبيون القسطنطينية وخانتها حافظتها لما باشرت الكتابة ، ولم ترَ بعينها فتوح انطاكية بل روت ما سمعته في بلاط ابيها ، وقد سمعت كثيراً من الاشاعات التي لا اصل لها . وكتبت الالكسياد بين السنتين ١١٣٧ و ١١٤٠ اي اربعين عاماً ، على التقريب ، بعد الحوادث التي تكلمت عنها .

يُستنتج من ذلك البحث انه اذا اردنا ان نفتش عن الشهود العيانيين فلا يبقى لنا الا الافرنج . وبين الافرنج ثلاثة مؤرخين معروفين شاهدوا عياناً حروب الزحفة الصليبيّة الاولى .

مؤرخو الافرنج

اولهم اسمه فوشه دي شارتر (Foucher de Chartres) . ولد في مدينة شارتر ، عام ١٠٥٨ ، وكان كاهناً فيها . رافق الى سورية روبير دوق نورمنديا ،

---

١) احسن طبعة لهذا الكتاب هي طبعة رفنرشيد (ليبسيك عام ١٨٨٩)

واتيان كونت مدينتي بلوا وشارتر ، وشاهد كل ما جرى بين قواد اللاتين والامبراطور الكسيس ، واشترك في احتلال نيقية وفي اغلب المواقع التي جرت في آسية الصغرى. ولكنه لم يحضر حصار واحتلال انطاكية ، لانه رافق بغدوين اخا گودوفروا دي بويون الى مدينة الرها ، وكان كاهنه الخاص. ولما ملك بغدوين على الرها وتزوج بارمنية بعد وفاة امرأته ، ترك عنده فرشه دي شارتر . وبعد وفاة بغدوين عُيّن فرشه محافظاً لكنيسة القبر المقدس سنة ١١١٨ . ويقف تاريخه عند السنة ١١٢٧ ، وعمره اقترب عندئذٍ من السبعين. كان فرشه المؤرخ الرسمي لاول ملوك مملكة القدس اللاتينية ، وخير شاهد على كل ما جرى لبغدوين في الرها ، وعلى مواقعه في آسية الصغرى ، وعلى علاقاته مع الارمن والروم والمسلمين ، وعلى الحوادث التي جرت في عهد ملكه في القدس وعهد بغدوين الثاني.[1]

والثاني ريمون داغيلر Raymond d'Aguilers واضع كتاب « تاريخ الافرنج الذين احتلوا القدس » . كان كاهناً قانونيًا (chanoine) لكنيسة سيدة البوي في مدينة بوي دي دوم في منطقة اوفرنية . وعندما ترأس اسقفه ادهيار جنود الصليبيين رافقه ريمون داغيلر ، والتحق بجنود ريمون دي سان جيل ، كونت تولوز ، واصبح رفيقه ومستشاره وكاهنه الخاص ؛ وكتب تاريخ الزحفة الصليبية الاولى « ليكذب الاشاعات المشوهة التي نشرها في الغرب الجنود الجبناء الذين هربوا من ساحة الحرب المقدسة ورجعوا الى اوطانهم ». وقد روى كل ما اتوا به من الاعمال اللامعة . ووصف جهادهم وذكر العجائب التي انعم بها الله عليهم . وريمون داغيلر اكثر المؤرخين سذاجة ورقة ، خفيف الروح ، بسيط القلب ، قوي العقيدة ، يتحدث مرارًا عن التوسط الالهي في المواقع وظهور القديسين بين صفوف المقاتلين ؛ واكتشاف الحربة المقدسة في كنيسة مار بطرس[2] بانطاكية . وقد شاهد بعينه كل ما وقع من المعارك في

---

١) راجع تاريخه في مجموعة مؤرخي الصليبيين الغربيين ٣ : ٢٠٣ - ٣٠٩

٢) روى بعض المؤرخين المسلمين اكتشاف الحربة المقدسة . ومنهم ابن الاثير ، قال : « وكان معهم (اي مع الافرنج) راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال ، يعتمد بذلك بطرس

سبيل احتلال انطاكية واستلاكها ، واشترك في كل هذه المعارك . فشهادته صادقة ، وقد روى جميع الحوادث باخلاص .

اما المؤرخ الثالث فلم يذكر اسمه وقد ترك كتاباً عنوانه « ملاحم الافرنج والقدّيسين الآخرين »[1] وهو اقدم تاريخ كتب عن الرحلة الصليبية الاولى ، ومؤلفه بدأ بانشائه في المعسكر في الوقت الذي كانت تجري به الحوادث ، حتى انه يتكلم احياناً بصيغة الحاضر ، واحياناً بالمستقبل عن المواقع التي يُنتظر انتشابها . وكان هذا الجندي المؤرخ من رجال بيمند القائد الصقلي ، اجتاز البوسفور برفقة تنكريد ابن اخت بيمند ، دون ان يتأخر في القسطنطينية ، واشترك في احتلال نيقية ومواقع انطاكية مع جنود بيمند . وينتهي تاريخه بعد موقعة عسقلان (١٢ آب ١٠٩٩) . ويظهر انه من سكان ايطالية الجنوبية ، ويمثل الطبقة الوسطى من جنود الصليبيين . وقد روى ما شاهده بكل دقة . وفي تاريخه حوادث كثيرة لا نجد لها ذكراً في كتب سائر المؤرخين .

***

الناسك . وهذا خطأ لان مكتشف الحربة فرويّ سكين من احدى مقاطع فرنسة الجنوبية عاجز عن ارتكاب الحيلة التي ينسبها له ابن الاثير بدون حق) فقال لهم : ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بانطاكية وهو بناء عظيم . فان وجدتموها فانكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق . وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعلى اثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم وسهم عاشهم والصناع منهم وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم اشروا بالظفر . » (راجع مجموعة مؤرخي الصليبيين الشرقيين : ١٩٥) وذكر البابا باسكال الثاني اكتشاف الحربة المقدسة في الكتاب الذي هنأ به الصليبيين المرسل في شهر ايار من السنة ١١٠٠ (Mansi, *Concilia*, II, 979)

(١) *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum* . كان يطلق في الغرب اسم « القدسي » على الحاج الذي زار القدس . — لهذا التاريخ طبعة حديدة ، غير المنشورة في مجموعة مؤرخي الصليبيين ، نحن مدينون بها للاستاذ برهيه :

Louis Bréhier, *Histoire anonyme de la première Croisade* [*Classiques de l'Histoire de France.* Paris, 1924]

ملحمة انطاكية

اولئك هم المؤرخون الـذين لم يشك احد في اشتراكهم بالرحلة الصليبية الاولى. وقد عثرنا في يوم من السنة ١٩٢٩ ، على اثر شعري لم نكن نتوقع في بادئ الامر اهميته . وهذا الاثر محفوظ في باريس في ستّ نسخات خطية خمس منها في المكتبة الوطنية (تحت ارقام٧٨٦ و٧٩٥ و١٦٢١ و١٢٥٥٨ و١٢٥٦٩) وواحدة في مكتبة الأرسنال (تحت رقم ٣١٣٩) ، وهو معروف بعنوان «ملحمة انطاكية» : *La Chanson d'Antioche*

لم نكن اول من اهتم بملحمة انطاكية . فقد نشر قسماً منها احد علماء اللغة الافرنسية القديمة في عام ١٨٤٨[1] . ولكن هذه الطبعة مشوّهة مملوءة بالاغلاط ، قديمة الاسلوب ، اكتفى ناشرها بلصق قطع مختلفة من ملحمة انطاكية نقلها عن النسخات الخطية بدون نظام . ثم قام استاذ آخر ونظر في ملحمة انطاكية في اطروحة قدمها لجامعة باريس عام ١٨٧٧[2] . ولكنه لم يتمكن من فحصها الا فحصاً سطحياً اكتفى فيه بنقد آراء من تقدّمه ، على كونه لم يتوفق لفهم اهمية ملحمة انطاكية التاريخية حتى ولا لقراءتها قراءة كاملة في المخطوطات . فجاءت الصحائف القليلة التي خصصها لدرس ملحمة انطاكية ضعيفة الاساس ، مخالفة للحقيقة الواقعة ، متناقضة الاجزاء . فلا عجب اذا لم تنل ثقة المهتمين بدراسة الآداب الافرنسية في القرون الوسطى .

ولما اتيح لنا ان نفحص ملاحم الصليبيين وصلنا الى نتائج تختلف عمّا اتى به الاستاذان المذكوران اللذان اهتما بملحمة انطاكية . وتبيّن لنا بعد ان فحصنا المخطوطات ان ملحمة انطاكية الاصلية اختفت ولا يُعرف لها اثر ، وقد جدّدها في اواخر القرن الثاني عشر شاعر من سكان فرنسة الشمالية اسمه غراندور

(١ Paulin Paris, *Roman des douze pairs, la Chanson d'Antioche* - 2 vol. in-8°. Paris, 1848, (chez Techener)

(٢ Pigeonneau, *le Cycle de la Croisade et de la famille de Bouillon*, in-8°. S' Cloud, 1877.

دي دوي Graindor de Douai ومزجها مع غيرها من الملاحم التي أُلفت في سورية لتمجد افرنج الشام ، وتخلد اعمالهم كملحمة القدس La Chanson de Jérusalem وملحمة الاسارى La Chanson des Chétifs . والآن لا تعرف ملحمة انطاكية الا بقالبها الجديد ، اي غير مستقلة ، بل محفوظة في النسخات الخطية كقطعة صغيرة من الملاحم الصليبية التي سبكها الشاعر المجدّد غراندور دي دوي في كتاب واحد لا يقل عدد ابياته عن الخمسين الفاً .

حلّلنا ملحمة انطاكية وقابلناها بمذكرات مؤرخي الزحفة الصليبية الاولى من مسلمين وافرنج ، فرأينا ان هذا الاثر الشعري الحماسي هو بالحقيقة خير وثيقة تاريخية لاحتلال انطاكية ، ومؤلفه الاصلي يدعى ريشار الحاج[1] . Richard le Pélerin ، ولم يحفظ لنا التاريخ سوى اسمه . ويظهر من ملحمته انه بلجيكي الاصل ، او من سكان فرنسة الشمالية ، وقد تجند تحت راية الكونت روبير دي فلاندر وبلغ القسطنطينية عن طريق ايطالية الجنوبية ، ورافق القائد تنكريد في غزواته باراضي آسية الصغرى . وكان ريشار ممتزجاً مع الشعب حين جرت الحملات الشديدة حول انطاكية . فاتت اشعاره صدى لعواطف الشعب وتضحياته وآماله وايمانه . والمجدّد حفظ لنا عدة ابيات تشهد بوجود ريشار بين المقاتلين حينما اشتعلت المواقع واشتد القتال . وعدا هذه الدلائل ، فقد عثرنا على شواهد اخرى تثبت اشتراك ريشار في الزحفة الصليبية الاولى اهمها شهادة وردت في المجموعة الاسبانية المعروفة تحت عنوان[2] . *La Gran Conquista de Ultramar* التي رُوي فيها اعمال الامبراطور شارلمان واعمال الصليبيين واساطير كثيرة تتعلق بتاريخ فرنسة واسبانية في القرون الوسطى . وتقف الحوادث التي ترويها هذه المجموعة في السنة ١٢٧١ ، وقد عرف مؤلفوها ملحمة انطاكية الاصلية وذكروا اسم ريشار الحاج عندما تحدثوا

---

١) اطلق المؤرخون المعاصرون للزحفة الصليبية الاولى لقب الحاج (pélerin) على كل من تجنّد ليحارب في سبيل القبر المقدس .

٢) راجع هذه المجموعة ، ص ٣٦٩ من المجلد الاول في طبعة كايتكوس :
La Gran Conquista de Ultramar., édit. Gayangos. Madrid, 1858

عن احتلال مدينة انطاكية ، وشهدوا بوجود ريشار بين صفوف المقاتلين.

وعثرنا على شهادة اخرى تعدّ من اوضح الدلائل على بعض العادات التي انتشرت في الحروب الصليبية ، وهي اهتمام القواد بشهرتهم الشخصية وتعلقهم بسمعتهم بين ابناء اوطانهم. فمنهم من كان يدفع للشعراء او للمؤرخين اموالاً طائلة حتى يذكروا اعماله في اراضي الشام ، ويخبروا عنها ابناء الغرب . ونحن مدينون بالشهادة المذكورة الى احد صغار مؤرخي القرن الثالث عشر المدعو لامبر من سكان مدينة اردر[1] Lambert d'Ardres ، واردر مدينة صغيرة في شمالي فرنسة كتب لامبر تاريخ حكامها ، ومنهم حاكم يدعى ارنول الشيخ رافق روبير دي فلاندر وجاهد الى جانبه في مواقع نيقية وانطاكية واورشليم. ولم يذكر ريشار الحاج اسمه بين القواد ، وحتى ولا بين الجنود . هذا ما دعا المؤرخ لامبر الى ان يحمل على ريشار حملة عنيفة ويتهمه بالبخل والسفالة وحب المال والملق، ويذكر السبب الذي منع ريشار، في نظره ، عن ذكر ارنول وتمجيد اعماله. وهذا السبب يستحق الذكر على قول لامبر[2]: لما حاصر الافرنج انطاكية نقصت الذخائر واشتد الغلاء وساد الفقر ، حتى ان الجند غدوا حفاة ومنهم شاعرنا ريشار الحاج . فما كان منه الا الذهاب الى مواطنه ارنول الشيخ طالباً منه ان يقدم له هدية « زوج احذية قرمزية لامعة » رآها معه[3]. فابى ارنول تقديم هذه التحفة السنية الى مغنٍ ذليل. فحينئذٍ انتقم ريشار وامتنع عن ذكر ارنول في ملحمته ، محاولاً ان يمدّ بساط النسيان على اعماله اللامعة.

معلومات ملحمة انطاكية

واذا اردنا ان نورد المعلومات الجديدة التي حفظتها لنا ملحمة انطاكية

---

١) Lambert d'Ardres : *Chronicon Ghisnense et Ardense* Edit. Grodefroy-Ménilglaise. Paris, 1855

٢) راجع القطعة التي ذكرناها باصلها اللاتيني في كتابنا : *Les poèmes épiques des Croisades* Paris, 1932, p. 336

٣) يقول الاصل اللاتيني : *duas caligas scarlatinas*

«والتي لا زالها في كتب المؤرخين الآخرين» عن الزحفة الصليبية الاولى، فيمكننا ان نقسم الملحمة الى ثلاثة اقسام:

أ- من خروج الصليبيين من بلادهم الى وصولهم لانطاكية

اضمنا افتتاح ملحمة انطاكية كما كتبها ريشار الحاج، ولم يبقَ لنا الا ما زاده المجدّد غراندور. وقد وضع مقدمة جديدة ليسبك ملحمة انطاكية مع ملاحم اخرى، وليحثّ شبان الغرب على التجنّد للدفاع عن الاراضي المقدسة. ومقدمة غراندور تبتدئ بوصف المسيح مصلوباً بين اللصّين، وتقول: لما استنجد اللص الصالح بالسيد المسيح اجابه: «اعلم يا بنيّ ان ايام نصري لم تأتِ بعد. وعندما يمضي الف عام على يومنا هذا، سيسير شعب قوي تقي من بلاده، ويحتلّ هذه الديار بسيفه، وينتقم من الامم التي كانت سبب آلامي. وهذا الشعب المبارك هو الشعب الافرنسي.»

وبعد هذه المقدمة الشعرية المختلَقة، يقصّ الشاعر غراندور على سامعيه سفر بطرس الناسك الى القدس، وزيارته القبر المقدس، ومقابلته بطريرك القدس، وظهور المسيح امامه عندما رقد في كنيسة القبر المقدس، وقد طلب منه يسوع المسيح ان يذهب الى الغرب ويقابل ملوك النصارى ويبلّغهم دنوّ الساعة التي لاجلها ضحّى بنفسه في سبيل البشر، فالكفر سائد في البلاد التي ولد وترعرع وعاش وصُلب ودُفن فيها. وهذه البلاد بلاده. فنهض حالاً بطرس الناسك، ورجع الى فرنسة، وجمع جيوشاً عظيمة وزحف الى الشرق.

طبعاً كل هذه الاخبار حماسية، لا تاريخية. والحقيقة ان بطرس الناسك ما وصل الى القبر المقدس، ولا الى فلسطين، قبل الزحفة الصليبية الاولى. ولم يكن القائد المطاع الذي صوّره بعض المؤرخين، وما برح طول الرحلة رفيقَ عامة الشعب، وصديق الفقراء.

تفتتح ملحمة انطاكية الاصلية عند وصول الصليبيين امام القسطنطينية. وهنا تبتدئ اهميتها التاريخية، وقد بيّن لنا ريشار خيانات امبراطور الروم الكسيس، واحتياله على قواد الصليبيين، وقطعه عنهم الطعام. وريشار المؤرّخ الوحيد الذي حفظ لنا الموقف الشريف الذي وقفه احد اقرباء الامبراطور،

الرسم ١ : انطاكية : باب الحديد

الرسم ٢ : صورة قديمة تمثل باب الحديد

الرسم ٣ : انطاكية : باب القديس جرجس
(عن « *Antioche* » Cte Jacquot)

المدعو تاتيكيوس، تجاه اللاتينيين ، فهو الذي قدّم لهم الذخائر والقوت اليومي، على الرغم من ارادة الكسيس ، الى ان عبروا البوسفور . وقد سار برفقتهم على رأس فرقة مؤلفة من جنود الروم . وهذا الدور الذي مثله تاتيكيوس مهم جدًّا . اذ لولاه لمات عدد كبير من الجنود جوعاً . وريشار الحاج اكثر جرأة من بقية المؤرخين . فهو الوحيد الذي روى خيانة الكيونت اتيان دي بلوا في ضواحي نيقية ، حيث هرب امام الترك ورمى سلحه على الارض . وفي طرق آسية الصغرى، دوّن ريشار في ملحمته ذكر الخصام الذي وقع بين بغدوين وتنكريد ، وذكر اشتراك النساء الافرنجيات في المواقع ، وتضحياتهنّ في سبيل ايمانهنّ ، والقتال العنيف الذي اشتعل في جسر الحديد بالقرب من انطاكية (بين انطاكية وحارم) .

٢ً حصار الصليبيين انطاكية

تتعدّد الادلة على وجود ريشار بين صفوف المقاتلين منذ وصول الجنود الى اسوار انطاكية . وقد وصف لنا المجاعة التي انتشرت في معسكر اللاتينيين بصور وعبارات بليغة ، وذكر لنا اسعار الاطعمة التي كان يقتات بها الافرنج، وبين هذه الاطعمة فخذ الحمار وسعره خمسة دنانير . وقصّ علينا الاعمال الباهرة التي قام بها فرسان فرنسة الشمالية ، ومنهم الفارس انگران دي سان پول Enguerrand de Saint-Pol ، ورنبو كروتن Raimbaut Creton ، ورينو پركه Renaud Porquet ، وهم من ابناء مقاطعة ريشار . فلولاه لما كنا استطعنا ان نعرف ونقدّر شجاعتهم واقدامهم في الحرب ، كما ان ريشار تجرأ وروى بعض الفظائع التي ارتكبها المقاتلون ومنها اكل اللحوم البشرية .

ولكن في ملحمة انطاكية ، كما في كتب بقيّة المؤرخين ، نقصٌ مهم جدًّا وهو ان جميعهم سكتوا عن كل ما يتعلق بصاحب انطاكية ، واكتفوا بذكر اسمه واسم والديه اللذين ذهبا لطلب النجدة من ملوك المسلمين وقد فتشنا لدى مؤرخي الاسلام وجمعنا كل ما حفظوه لنا عن صاحب انطاكية ، فماذا هو ياغي سيان التركماني . وما استطعنا ان نعثر على تاريخ ولادته ، ولا على المحل الذي ولد فيه . واول مرة رأينا له ذكرًا في التاريخ هو في السنة ١٠٦٦ اذ كان

يهنئ الخطبة في قزوين (في فارس) باسم السلطان السلجوقي الب ارسلان ، وقد ساعده تتش بن الب ارسلان على الاستيلاء على انطاكية . ولما مات تتش التحق برضوان ابن تتش وزوجه بابنته ، وغزا برفقته مدينة الرها وحصنها . وحاول بالاتفاق مع رضوان احتلال دمشق التي كان يملكها دقاق شقيق تتش . ولكن وصول الافرنج حال دون هذه المساعي . ولما حاصر الافرنج انطاكية خاف ياغي سيان من النصارى الذين بها ، فابتدأ باخراج المسلمين وحدهم من انطاكية ، وامرهم بحفر خندق في خارج المدينة . ثم اخرج في اليوم التالي نصارى المدينة لاكمال حفر الخندق ، وما كان معهم مسلم ، فاشتغلوا في الخندق الى العصر ، ولما ارادوا دخول المدينة منعهم وقال لهم : « انطاكية لكم فهبوها لي حتى انظر ما يكون مني ومن الافرنج . » فقالوا له : « ومن يحفظ اولادنا ونساءنا . » فقال : « انا اخلفكم فيهم . » فرجع النصارى واقاموا في معسكر الافرنج[1] . ولما احتل الصليبيون انطاكية هرب ياغي سيان مع جماعة من اصحابه . وعند وصوله بالقرب من ارمناز ، ومعه خادم من غلمانه ، وقع عن ظهر فرسه . فحمله الخادم واركبه على ظهر الفرس ، فلم يثبت ، وعاد فسقط مرة ثانية . وادركه حينئذ الارمن . فهرب الخادم وقتل الارمن ياغي سيان ، وحملوا رأسه الى الافرنج[2] .

بقيت الظروف التي احاطت احتلال انطاكية سرية . وقد جرى بين بعض قواد الافرنج وحراس اسوار انطاكية تدابير ما عرف احد غايتها . وعقد قواد النصارى اجتماعات ما استطاع المؤرخون ولا الجنود ان يطلعوا بها ، وقد قال مؤرخ شاهد الوقائع عياناً : « لا يمكنني ان اقص كل ما فعلناه قبل استيلائنا على انطاكية ولا يستطيع احد اكليريكياً كان او علمانياً ان يكتب او يروي كيف جرت الامور »[3] . ومع هذا لم تزل رواية ريشار الحاج عن احتلال انطاكية اكمل الروايات وادقها واقربها الى العقل . وسنأتي بما رواه مؤرخ حلب

١) راجع ابن الاثير (طبعة تورنبرغ) ١٠ : ١٨٧

٢) راجع كتابنا عن ملاحم الصليبيين ، ص ١٦٧ و١٦٨

٣) راجع طبعة برجيه ، ص ١٠١

كمال الدين بن العديم، قبل ان نشرع بتحليل رواية ملحمة انطاكية.

قال ابن العديم : « فلما كانت ليلة الخميس اول ليلة من رجب (٣ حزيران ١٠٩٨) واطأ رجل يعرف بالزرّاد من اهل انطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه وذلك ان ياغي سيان قد كان صادر هذا الزراد واخذ ماله وغلته فحمله الحنق على ان كاتب بيمند قال : انا في البرج الفلاني وانا اسلم اليك انطاكية ان أمّنتني واعطيتني كذا وكذا . فبذل له ما طلب وكتم امره عن باقي الافرنج ... وجمع بيمند القوامص (Comtes) المقدمين عليهم وقال لهم : هذه انطاكية ان فتحناها لمن تكون ؟ فاختلفوا وكل طلبها لنفسه . فقال : الصواب ان يحاصرها كل رجل منا جمة فمن فتحت في جمته فهي له فرضوا بذلك . ولما كانت نوبته دلّى لهم الزراد ، لعنه الله ، حبلًا فطلعوا من السور وتكاثروا ورفع بعضهم بعضاً وجاروا الى الحراس فقتلوهم وتسلم بيمند ابن الاسكرت (Guiscart) وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصايح من ناحية الجبل فتوهم ياغي سيان ان القلعة قد اخذت وخرج من البلد . »[1]

هذا ما قاله ابن العديم . وقد صدق في قوله ، عدا ما يتعلق باقتراح بيمند على ان يحاصر انطاكية كل قائد اسبوعاً كاملًا ومن يحتلها باسبوعه تكون له . والحقيقة ان القواد تركوا انطاكية لبيمند خوفاً من ذهاب الوقت سدى، ومن قدوم صاحب الموصل كربوقا الذي كان يهدّد جنوده لنجدة ياغي سيان. واننا نستخلص من رواية ابن العديم حادثين مهمين : اولهما ان الافرنج استطاعوا ان يفتحوا انطاكية بمساعدة احد المسلمين الذي كان يتولى حراسة برج من ابراج المدينة. والثاني ان هذا « الخائن » كان زرادًا وقد خابر الافرنج بواسطة بيمند .

ولكن علاقات الزراد (واسمه فيروز) ببيمند بقيت سرّية الى آخر ساعة. حتى ان اتيان دي بلوا هجر المعسكر ورجع الى بلاده قبل سقوط المدينة بيوم واحد . ولو علم اقتراب النصر لما هرب . وما عرف المؤرخون تاريخ ابتداء

١) مجموعة مؤرخي الصليبيين ، ص : ٥٨١

هذه العلاقات ولا سببها . فمنهم من زعم ان بيمند اسر في احدى غزواته ولداً صغيراً كان ابن الزراد فاعاده الى والده . فاراد الوالد ان يثبت معرفته الجميل فساعد الافرنج . ومنهم من زعم بان الزراد رأى في منامه المسيح ، او قديساً من القديسين ، ولما استفاق من غفلته تنصر حالاً والتحق بالافرنج بعد ان سلّمهم البرج . والحقيقة ان الزراد اراد ان ينتقم من ياغي سيان لانه صادر امواله ، كما روى كمال الدين ، وذلك وقت الحصار حيث وقعت مجاعة عظيمة في انطاكية واكره ياغي سيان كل من جمع عنده حبوباً على ان يضعها تحت تصرفه ...

تكلم المؤرخون عن سقوط انطاكية . ولكنهم كتموا من الحوادث اهمها . والفضل لريشار الحاج ان كنا نحفظ الآن بياناً كاملاً عن كل ما جرى في ليلة ٣ حزيران من عام ١٠٩٨ ، حول اسوار هذه المدينة العظيمة[1] : لما الحّ بيمند على الزرّاد طالباً ان يسرع في العمل بموجب وعده ، بلّغ الزراد بيمند ان يجمع عساكره ويفعل كانه سيقودهم الى غزو الاراضي الاسلامية البعيدة عن انطاكية . ويمكنه هكذا ان يخفي نيته الحقيقيّة ، وفي الليل يزحف على انطاكية بغتة . وعيّن له ساعة يكون قد تهيّأ فيها لتسليمهم البلدة . ولما اتى الليل واقترب وقت الميعاد استحضر الزرّاد سلّماً طويلاً وانزله من اعلى البرج الى اسفله ، وحمل بيده مصباحاً ساطعاً ووجّهه نحو الافرنج لكي يروا السلّم جيّداً . وكان الزرّاد قد سلّمهم احد اولاده وديعةً ...

الا ان الافرنج لم يسرعوا في تسلّق السلم بجرأة ، كما زعم المؤرخون . في ذلك الظلام الحالك ، وامام ذلك الرجل الذي خان دينه وبلاده ، وتجاه ذاك البرج العالي ، وذلك السلم الذي لم يكفل متانته احد ، ارتجف اشجع قواد الافرنج . فاراد روبير دي فلاندر ان يحوّل الى بيمند شرف الطلوع على السلم في مقدمة الجيش فاجاب بيمند : « يا اخي ، لا تتعب نفسك ولا تطل شرحك . فانا لا اتسلق السلم ، ولو كان البرج كله من ذهب لاني لا احب ان اعرّض نفسي للهلاك . » وفي الوقت ذاته كان الزرّاد يناديهم قائماً طالباً منهم

---

١) يبتدئ ذكر سقوط انطاكية في المخطوط عدد ١٢٥٥٨ ، في الصفحات ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣

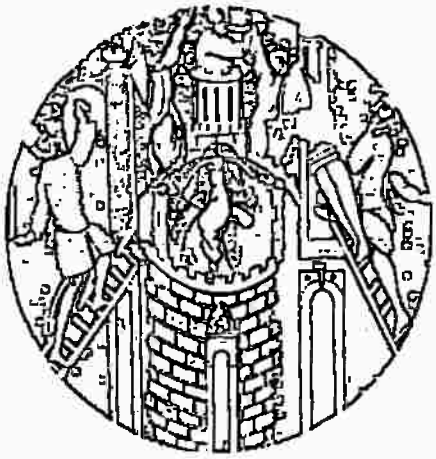

الرسم ٤ : صورة قديمة تمثل الصعود على البرج

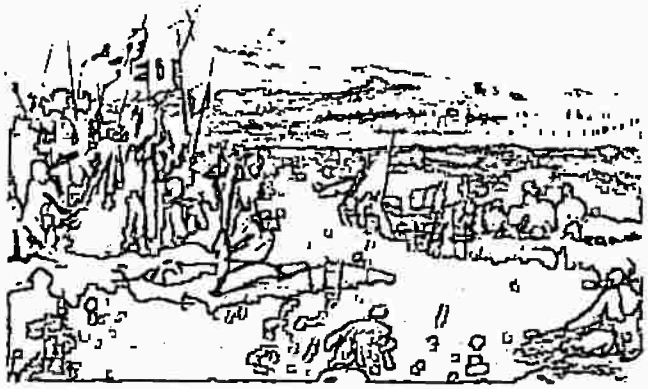

الرسم ٥ : صورة قديمة تمثل المعركة بين الصليبيين والمسلمين

(عن " Antioche " Cte Jacquot)

الاقدام على عملهم ، او ارجاع ولده . ولما رأى روبير دي فلاندر الحالة التي وصلوا اليها ، يأس وبكى حزناً . . .

ولم يزل الافرنج مضطربين حائرين ، والوقت يمضي ، ولا يمكن لفرصة كهذه ان تُعاد الى ان وصل گودفروا دي بويون ، فناداه روبير دي فلاندر قائلاً : «افلا ترى ، يا ابن عماه ، الرعب الذي وقع في قلوبنا . وما احد منا يقترب من البرج ؟» فاجابه : « ما كنت اتوقع ذلك من الابطال . » ثم تضرّع الى الله وطلب عونه واقترب من السلم . ولكن روبير دي فلاندر سبقه وقبض بيده على السلّم وكاد يتسلقه ، لو لم يوقفه صعلوك من سكان مقاطعة الفلاندر اسمه فوشه اليتيم . ولا بأس هنا ان نعرّب قطعة من الشعر الافرنسي القديم كتبها ريشار الحاج في انطاكية بعد سقوط المدينة بايام قليلة ، قال :

ثم ادرك روبير دي فلاندر السلّم وقبض عليه بيديه الاثنتين . . .
حينئذٍ هجم عليه فوشه اليتيم ، والفّ ذراعيه حول جوانبه .
– ولد فوشه في الفلاندر حيث يوجد فرسان شجعان ، –
وقال فوشه للكونت روبير : « سيدي اسمع كلامي :
انت ابن القديس جرجس ، وهكذا يدعوك الناس ،
فاذا اضعتك ستخسر خسارةً عظيمة .
اما انا فاذا متّ فلا احد يبكيني ، لانني يتيم ؛
ساطلع على السلم ، سيدي النبيل ، ويسوع يساعدني . »
سمع الكونت روبير كلامه ، ورفع يده عالياً ،
ودمور فوشه على الارض ، ورسم اشارة الصليب ،
وقطع اول درجات السلم .
كان الكونت روبير قد اخذ منه الغضب ،
وطلع فوق درجتين من السلم بسهولة .
ولكن فوشه اليتيم هجم ، وقبض عليه من جانبه ،
وقال له : « سيدي روبير دي فلاندر ، انت لم تزل باسلاً
ولا يوجد بين القواد البسلاء من هو أكثر شجاعة منك .
وان كان يجب عليك ان تموت ، فسيحصل لنا ضررٌ عظيم .
وعندك ، يا سيدي النبيل ، اراضٍ واسعة يجب عليك ان تتولى حفظها .
ولك زوجة واولاد جمك الله بهم .

اما انا فلا املك الا روحي التي سابذلها ، وليس لي في الدنيا مطامع .
فدعني انسلق قبلك ، باسم روح القدس .
فاذا متُّ انا فوتي لا يضرّ احدًا وسيكون موتي في خدمة الله .
في الجيش كثيرون افضل مني ، ويستحقون الكرامة اكثر مني . » (١)

وسمح روبير لفرشه ان يتسلق البرج امامه . فاستنجد فرشه بالله ، وبدأ بالطلوع ، ولحقه بقية القواد . وبعد ان بلغ بعضهم البرج ، انقطع السلم ووقع من عليه على الارض فقُتل فارسان . ولكن فرشه ورفاقه قتلوا حرّاس الاسوار وفتحوا ابواب المدينة التي سقطت بعدة وجيزة بايدي الافرنج .

تلك هي رواية ملحمة انطاكية . ولا يمكن لمؤرخ ، من الآن فصاعدًا ، ان يقصّ الزحفة الصليبية الاولى بدون ان يستعين بها . لان ريشار الحاج هو الكاتب الوحيد الذي مثل لنا قواد ذلك الجيش العظيم رجالًا مثلنا يتألمون مثلنا ، ويخافون احيانًا ، ويحارون ويبكون ، ويمرضون . واورد لنا الاخبار التي تتعلق باحتلال انطاكية بكاملها ، وبدون تصنع ، وباخلاص لا يمكن لاي رجل كان ان يشكّ به .

٣ حصار كربوغا انطاكية

احتلّ الافرنج انطاكية ووجدوا فيها من الاموال والاقوات ما شفى غليلهم . ولكنهم ما استطاعوا ان يهنأوا بفوزهم . ففي اليوم الخامس من شهر حزيران داهمهم عدوّ جديد بشخص صاحب الموصل قوام الدولة كربوقا(٢) . عرف كربوقا بوصول الافرنج الى اراضي الشام فجمع عساكره وقطع بهم الفرات ، وسار الى مرج دابق ، وقد اجتمع اليه هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق ، والاتابك طغتكين ، وجناح الدولة صاحب حمص ، وارسلان تش صاحب سنجار ، وسقمان بن ارتق الذي ملك القدس وخسرها ، ووثاب

(١) المخطوط ١٢٥٥٨ : الورقة ٩١ ، الصفحة ٢ ، العمود الاول .
(٢) وأينا في المخطوطات : كربوغا ، وكربوقا ، وكربغا ، وقربغا . ولا نعلم اي لفظ اصحّ . راجع ، خصوصًا ، كل ما تركه لنا المؤرخون عن كربوقا ، كتابنا عن ملاحم الصليبيين ص ٢٠٢-٢٠٤ .

ابن محمود ومعه جماعة من البدو . ولما بلغهم سقوط انطاكية بيد الافرنج رحلوا جميعهم الى انطاكية وحاصروها.

كان كربوقا من ابطال ملاحم الصليبيين . وقد روت عنه ملحمة انطاكية عدة اخبار لا اصل لها في التاريخ منها محاورته مع امه الساحرة ، وكتابه الى السلطان السلجوقي برقيارق الذي يتعهد فيه ان يكسر الافرنج. ويوجد ملحمة خصوصية محفوظة في المخطوط عدد ١٢٥٦٩ موضوعها اعتناق كربوقا النصرانية.

احدث حصار كربوقا انطاكية تأثيراً عظيماً في عقلية الصليبيين.واصل سمعة كربوقا بين الافرنج تلك الآلام التي قاسوها مدة حصار انطاكية ، والمجاعة التي فتكت بهم ، وكان ريشار ابلغ معبّر عنها . اشتد الحصار فمادوا يقاسون الاهوال التي قاسوها عندما حاصروا المدينة . ووقع يأس عظيم في جيش النصارى حتى ان عدداً كبيراً منهم بدأوا يهربون من انطاكية بواسطة حبال كانوا ينصبونها من فرق الاسوار فيفرّون قاصدين البحر حيث يمكنهم ان يعودوا الى بلادهم.وقد اطلق الصليبيون على هؤلاء الجبناء لقب البهالين (جمع بهلوان) *les funambules*

وان ريشار الحاج يقص علينا ، كسائر المؤرخين ، رُؤيا الكاهن التقي ، واكتشاف الحربة المقدسة في كنيسة مار بطرس ، وسقوط صاعقة بين صفوف المسلمين ، وبناء الصليبيين سوراً بين المدينة ومعسكر كربوقا ، والحريق الذي اشعله بيسند في انطاكية ، وقد هدم هذا الحريق اكثر من الفي بيت . ولما اشتد الحصار ، واشتدت المجاعة ، اراد الافرنج ان يفاوضوا كربوقا فارسلوا اليه بطرس الناسك مع جندي افرنسي يتكلم العربيّة . وقد اختلف المؤرخون في ذكر غاية هذه المفاوضة . قال ابن الاثير :« واقام الافرنج بانطاكية بعد ان ملكوها اثني عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه وتقوت الاقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر . فلما رأوا ذلك ارسلوا الى كربوقا يطلبون منه الامان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجون الا بالسيف.» ولكن المؤرخين اللاتينيّين زعموا بان غاية بطرس الناسك ورفيقه هي ان يطلب من كربوقا ان يقلع خيامه ويهرب لان انطاكية مدينة نصرانية . واذا لم

يفعل فليقبل موقعة فردية او مبارزة تنحصر في بعض الاشخاص، فالمنتصر منهم تمنح النصر لامته . ويصعب علينا الآن ان نعرف حقيقة مهمة بطرس الناسك. ومما لا شك فيه هو ان كريوقا ظهر امام رسل الافرنج بسفاهة لا تطاق. وقد سببت هذه السفاهة اشياء بتيِّسة امراء الاسلام حتى انهم اتفقوا على تسليمه للافرنج، واضمروا في انفسهم الغدر.

وروى ريشار الحاج وصول بطرس الناسك ورفيقه الى معسكر الاسلام . وذكر مقابلتهما لكريوقا، ووصف لباسه. ونقل اقواله التي تدل على كبريائه، وخطاب بطرس الناسك الذي لا يقل عجرفة عن جواب صاحب الموصل . ولما تأكد بطرس فشل مهمته، رجع الى معسكر الافرنج واطلعهم على جواب كريوقا الذي يريد ان يقاتلهم باسرع حين. وطلب منهم ان يتهيأوا للخروج من المدينة، وللهجوم النهائي . واراد كريوقا ان يعرف اهميَّة جيش الافرنج فارسل اليهم جاسوساً استطاع ان يطّلع على سلاحهم وعددهم . ولما عرف كريوقا استعدادهم ندم على رفضه اقتراح بطرس الناسك، وحاول سدّى ان يفتح سبيلاً لمفاوضات جديدة . وفي هذه الملحمة يمكننا ان نقتبس من ريشار الحاج معلومات جديدة ما حفظها سواه، واهمها استشارة بيمند الشعب :

عرفنا ان بيمند غدا صاحب انطاكية . ولما مرض صنجيل اصبح رئيس قواد الجيش . وقبل خروجه من انطاكية اراد ان يأخذ رأي الجند، فسألهم هل يرغبون حالاً في محاربة كريوقا . فكان جوابهم بالاجماع انهم يفضلون ان يموتوا في القتال على ان يموتوا جوعاً، والموت جوعاً لا مناص منه ان طالت بهم الحالة التي هم فيها.

ومن المشاهد التي رآها ريشار بعينه وحفظها في كتابه قصة پيير پستيو رايثرڤين دي كرايل Pierre Postiaus et Evervins de Creil وهما فارسان من شمالي فرنسة، قال : لما حصل الضيق العظيم الذي ذكرناه في انطاكية افتقر پيير ولم يبق عند ايثرڤن سوى حماره . فيوماً من الايام بينما كان ايثرڤن في احدى الكنائس منقطعاً للصلاة، اتى رجال پيير الى سيّدهم وقالوا له : سيدي نحن على وشك ان نموت جوعاً، وها قد مضى علينا سبعة ايام ولم نذق طعم الخبز.

فاجابهم پيير : «اذهبوا ، يا اصحابي ، واقبضوا على حمار ايفرنن واشووه ، فلحمه فاخر جداً وبركة الله عليكم .» فذهبوا وذبحوا الحمار وطبخوا منه غذاء لذيذاً . وشمّ رائحته ايفرنن عندما رجع فالتذّ بها ، وطلب حصته ليأكلها حالاً ، بعد ان هنأ رفاقه بعثورهم على طعام طيب كهذا . ولكنه لما علم بان حماره قُتل وطُبخ وأُكل ، اخذه الغضب ،فاجابه پيير : «يا اخي، اشتد ضغطنا من الجوع . وغداً سنقاتل الاعداء فان انتصرنا سنصبح اغنياء . وان انكسرنا فسنُقتل في سبيل الله . وفي الحالتين لا لزوم لحمارك . فعوضاً عن ان نتشاجر ، تعالَ نتضرّع ونطلب من الله ان يحفظنا ويحفظ جيشنا ويحقق امانينا . » فتعانق الفارسان واكلا من لحم الحمار . ثم باشرا الصلاة . . .

وامر القائد الروحي لجيش الصليبيين ، وهو الاسقف ادهمار ، جيوشه ان يصلّوا ويصوموا ويعترفوا ويتناولوا القربان المقدس ، ويتصدقوا على الفقراء مدة ثلاثة ايام . وفي الثامن والعشرين من شهر حزيران شرعوا بالخروج من انطاكية ، وقد حمل المطران ادهمار الحربة المقدسة ، وقاد بنفسه جيوش صنجيل لان صنجيل بقي في انطاكية ليحافظ على المدينة . وكان خروج الجيوش من احد ابواب المدينة المسمى بباب البحر ، لانه اقرب الابواب لمرفأ السويدية ، وقد خرجوا من انطاكية متفرقين شرذمة وراء شرذمة كما وصفهم ريشار والمؤرخون المسلمون . فلو هاجمهم كربوقا في هذا الوقت لانتصر عليهم ، فان انتظاره اياهم ليتكامل عددهم ، بالرغم من رأي بقيّة الامراء المسلمين ، سبّب انكساره . ولما اجتمع الافرنج خارج المدينة ولى المسلمون هاربين لما كان قد عاملهم به كربوقا من الاهانات والاحتقار ، ثم انهزم كربوقا خوفاً . وظن الافرنج ان هروبهم حيلة ، لما لاحظوا انّ قسماً منهم ظلّ في محلّه لمقاومتهم ، فاعتقدوا ان القسم الآخر سار من جهة البحر لكي يعود ويلتفّ حولهم . فلحقوا بالهاربين وتركوا بهم ، ولم يتركوا منهم في قيد الحياة الا القليل . واخيراً احرق جنود كربوقا خيامهم وما استطاعوا حرقه من اموالهم واختفوا بين الجبال . فتمّ النصر للافرنج واكتسبوا اموالاً وخياماً وآلات حربيّة لا تحصى . وكانت قلعة انطاكية قد بقيت بين يدي المسلمين ، وكان المتولي عليها اسمه احمد بن مروان . فلما عاد

الافرنج الى انطاكية منحوه الامان ومن معه . فسلمهم القلعة يوم الاحد في ٥ تموز من عام ١٠٩٨ ، وخرج منها وعامله الصليبيون بلطف وانسانية وانزلوه في قصر من قصور انطاكية ، ثم ارسلوه الى حلب مع شرذمة من رجالهم ليحموه .

هكذا تم النصر للصليبيين وكانت المواقع التي جرت في سبيل انطاكية اعظم مواقع الزحفة الصليبية الاولى ، كما قلنا في اول مقالنا هذا . وقد انتجت آثارًا شعرية عديدة. ومما يستحق الذكر ان هذه الآثار الشعرية تولدت وانتشرت في اراضي سورية ولبنان وفلسطين ، قبل ان تُعرف في الغرب . وقد كان لافرنسي مملكة القدس اللاتينيَّة ادب يمتاز عن ادب افرنسي فرنسة . وملحمة انطاكية التي كتبها جندي صليبي في سورية ، تحت غبار الغزوات والحروب ، بين رفاقه الذين كانوا يقاسون الاهوال نظيره ، لهي اول ملحمة بل اول اثر خالد لادب افرنسي الشرق الذي ازدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما هي اثر من اصدق واكمل الآثار التاريخيَّة التي حفظت لنا احتلال انطاكية .